الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتاباً بالطبع يملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب موجز ولفظ فصيح. فلما امتدت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفيء اضطرهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدونها عمر. ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصر: ففي العراق وفارس بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية. حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين[1] فحولت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد[2].

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالي، وفي هؤلاء من وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أوشكت أن تصبر بها صناعة.

أما أسلوبها فكان جزل الألفاظ، فخم التراكيب، واقفاً عند الغرض، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد. وكانت تبدأ بالبسملة وقولهم: من فلان إلى فلان، أما بعد. أو إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. وتختم بالسلام، أو بقولهم: والسلام على من اتبع الهدى. فلما ولى الخلافة الوليد ابن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس، وتفخيم الخطاب، وألا يكاتب بمثل ما تكاتب به السوقة. وجرى العمل على ذلك من بعده، حتى استخلف عمر ابن عبد العزيز، ثم يزيد ابن عبد الملك، فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف.

---

(1) المراد بالدواوين هنا دواوين الخراج لأن دواوين الجند ودواوين الرسائل كانت تكتب بالعربية منذ وضعت .

(2) نقل ديوان الخراج في العراق صالح ابن عبد الرحمن في ولاية الحجاج، ونقله في الشام أبو ثابت سليمان ابن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد ابن عبد الملك، وأما في مصر فأول من وليه ابن يربوع الفزاري الحمصي في خلافة الوليد ابن عبد الملك أيضاً.

على أن نظام السكون وطبيعة لناس في هذا العهد أبيا هذا الجمود، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب. وجملة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة، فانتقل من السجعات القصيرة المفككة، والمعاني العامة المجملة، إلى هذا الأسلوب المحكم الفقر، المطرد السياق، المختلف الغرض، العميق الأثر، كما ترى في رسائل الإمام علي وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر.

الكُتَّاب

عبد الحميد بن يحيى

نشأته وحياته

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية، ونسب إلى بني عامر نسبة ولائية. ثقف الكتابة على سالم مولى هشام ابن عبد الملك وكاتب سره، ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولايته على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة. فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد. فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال: ولم اسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال: إذن تطير معي. قال: الآن طالب السجود. وسجد. فاتخذه مروان كاتب دولته. ولما هاله خفوق الأولية السود ودنو أبي مسلم وتتابع الفشل قال بعيد الحميد: قد احتجت أن تصير معي عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابك: تحوجهم إلى حسن الظن بك. فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد مماتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك، وأنشد:

أسر وفاء ثم أظهر غدره فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر، فلجأ إلى صديقه عبد الله ابن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو في بيته. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا. مخافة على صاحبه. وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة 122هـ.

أثره في الكتابة

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثا مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا تحور إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة. فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهيأة إلى فن من الكتابة جديد، فإن تشعب أطراف الدولة، وبدو ثمار الحضارة، وزهو النثر والخطابة، ودنو المربية من الفارسية، وتخرج عبد الحميد على سالم مولى هشام، وصلته الوثيقة بابن المقفع، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب عبد الحميد. فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبينة القواعد.

أسلوبه

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الديباجة، يسبى المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر. وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبي أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجلبه به ويستميله، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره؛ وكتب على جذاذة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

نموذج من نثره

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان:

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحلیناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبها، وخشن لبنها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا. وإن يلحقنا ظفر جارح

من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفه جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

وقال من وصيته للكتاب، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكتاب أصبحوا جماعة.

..... وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وكتب في التوصية بشخص: حق موصل كتابي عليك كحقه علي، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته. وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله.